مارى كورى
عاشقة العلم والإنسانية
١٨٦٧ - ١٩٣٤

أن تضع لك هدفا فى الحياة، وتكرس حياتك له، وتكافح ثم تحققه، هذا منتهى النجاح، فما بالك لو كان من يفعل ذلك عبقرى من عباقرة الزمان؟ إنه النجاح الإنسانى بعينه، والذى يعود على كل إنسان فى هذا الكون بالسعادة والصحة وطول العمر.

هذا النموذج الإنسانى الرائع يتمثل فى العالمة الإنسانية المكافحة الصبورة القوية الدكتورة مارى كورى مكتشفة مادة الراديوم Radium، فقد ولدت من أبوين فقيرين كريمين، الوالد يعمل مدرسا لمادة الطبيعة، والوالدة ناظرة لإحدى مدارس البنات، ولأن الوالد وطنى غيور على وطنه محب للغته البولندية، طرده الاستعمار الروسى الذى كان يفرض نفسه على بولندا إبان تلك الفترة التاريخية، ويريد أن يلغى هويتها وشخصيتها، وينكل بكل مواطن حر شجاع يدافع عن وطنه، فطرده من عمله.

فى هذا المناخ غير الصحى ولدت «مارى سكلوديفسكا» فى مدينة وارسو عاصمة بولندا سنة ١٨٦٧، لم تكن المشكلة فى طرد الوالد من عمله

وبيته فحسب، بل كانت الوالدة تعانى من مرض السل، الذى أجبرها على الراحة وعدم القيام بأعمال المنزل، ورعاية بناتها الثلاث، زوسيا، وبرونيا وأخيرا مارى. ورثت طفلتنا الصغيرة عن والديها حب العلم والثقافة وعشق القراءة والمعرفة، والإيمان بالوطن ولغته واستقلاله، وعرفت مارى منذ نعومة أظفارها العمل لمساعدة أمها المريضة والصبر على قسوة الأيام، فبعد أن طُرد والدها من بيته، استأجر شقة متواضعة، ولأن دخله وصل إلى أقل من القليل فقد اضطر إلى أن يؤجر بعض حجرات هذه الشقة للطلبة الغرباء حتى يستطيع العيش.

لم تهتم مارى بالضجيج الذى كان يفعله وجود الطلبة، وساعدت أمها فى أعمال البيت، وحاولت أن ترسم البهجة والتفاؤل فى وجه والدها، واهتمت بمساعدة شقيقتها زوسيا التى أصيبت بمرض التيفود، كل هذا بجانب دراستها ومدرستها، وقراءتها الخاصة، وفى سن العاشرة فقدت مارى أختها زوسيا ثم أمها، ولم تستسلم للحزن والبكاء وهى مازالت صغيرة، بل حاولت أن تعوض والدها وأختها الكبرى برونيا، وملأت البيت بالحركة والحيوية والنشاط، وانتهت من دراستها الثانوية بتفوق، ووضعت لحياتها هدفا أن تذهب إلى باريس عاصمة الثقافة والمعرفة لتدرس مادة العلوم، ولكن الطريق ليست ممهدة، فهى تحتاج إلى مال كثير، ثم إن شقيقتها الكبرى برونيا تريد أن تدرس الطب فى باريس هى الأخرى فماذا تفعل؟

بحثت مارى عن عمل حتى تستطيع شقيقتها الكبرى السفر أولا إلى باريس للدراسة، ثم تسافر هى بعد ذلك، وفعلا عملت مربية لطفلة

فى بيت ريفى هادئ، وسافرت شقيقتها إلى باريس للدراسة، وتولت مارى إرسال مبلغ معين من راتبها الشهرى إليها حتى تستطيع العيش فى باريس المعروفة بارتفاع أسعارها.

لم تكن مارى شخصية عادية. بل كانت طموحة قوية مثقفة، تقرأ كثيرا. وحتى فى مكان عملها الجديد كانت تخصص وقتا يوميا للقراءة. كما كانت تحفظ قصائد عديدة من الشعر، وتلقيها بعذوبة ورقة. كانت تحمل نفسا فنانة. فهى جادة مع العلم والثقافة، مرحة مع الشعر تتقن القيام بعدة رقصات ولعبات الذكاء. وفى المجمل كانت فتاة أوربية تملك شخصية ساحرة. عندما أقبلت على العمل كمربية، كانت قد بلغت السابعة عشرة من عمرها الحقيقى، ولكن عمرها العقلى كان أكثر من ذلك بكثير.

وفى أثناء عملها كمربية خصصت ساعتين كل يوم لتعليم مجموعة من الصبيان والبنات الفقراء من أبناء تلك المنطقة الريفية مبادئ قراءة وكتابة اللغة البولندية، وكان هذا العمل مخاطرة منها، لأن الشرطة كانت تعذب وتقبض على كل من يُعَلم الآخرين.

كان من الطبيعى أن تجذب شخصية مارى الساحرة الابن الأكبر للأسرة التى كانت تعمل فى بيتها. فاقترب منها وعبر لها عن إعجابه الشديد بشخصيتها المتكاملة ووطنيتها وثقافتها، وبادلته الحب. وعندما أراد أن يتوج هذا الحب بالزواج، وقفت التقاليد البالية العتيقة حائلا أمام هذا الزواج، فكيف يتزوج هذا الشاب الغنى بمارى الفتاة

الفقيرة التى اضطرت للعمل كمربية أطفال حتى تجد لقمة العيش؟ ضاع الحب وانسحب المحب عن حبيبته تاركا جرحا فى مشاعرها، لكنها تعودت على قسوة الأيام. ولم تنس هدفها الذى وضعته لنفسها منذ صباها، أن تدرس العلوم فى كلية السوربون بباريس.

استمرت مارى فى عملها دون اكتراث بالمحب الضعيف الذى لعب بعواطفها وهزمته التقاليد العتيقة. وأخذت ترسل لأختها فى باريس نصف مرتبها تقريبا كما كانت تساعد والدها أيضا على العيش. وبعد ثلاث سنوات أرسلت لها شقيقتها تعرفها أنها تزوجت وليست بحاجة لمساعدتها. وتشكرها على ما قدمت وتدعوها للسفر إلى باريس لتأخذ دورها فى الدراسة وتحقق حلم حياتها، بل وتقيم فى بيتها، كذلك كان الوالد قد التحق بعمل جديد يعوضه عن الفقر الذى استمر معه عدة سنوات. فتركت مارى عملها استعدادا للسفر إلى باريس.

لم تكن مارى الفتاة ذات العشرين ربيعا ونيفا من عمرها قد ادخرت مالا كثيرا يساعدها فى رحلتها. فقد أنفقت بسخاء على والدها وشقيقتها، ومع ذلك فهى بسيطة تستطيع أن تعيش على الكفاف وتتحمل الصعاب. وفى خريف سنة ١٨٩١ ركبت عربة البضاعة الملحقة بآخر عربات القطار المتجه إلى باريس لتبدأ رحلتها مع الدراسة والعلم. كانت سعيدة على الرغم من صعوبة السفر والبرد والجوع والمكان، استغرقت الرحلة ثلاثة أيام من مدينة وارسو عاصمة بولندا إلى باريس عاصمة فرنسا.

فى باريس عاشت مارى فى بيت شقيقتها بعضا من الوقت، ولكنها سرعان ما ضاقت بكثرة الضيوف وبُعد المسافة بين البيت والجامعة، واستأذنت شقيقتها فى البحث عن حجرة بجوار الجامعة حتى تتفرغ للدراسة، واختارت حجرة متواضعة على سطح بيت قديم تتفق وظروفها المادية الصعبة، إذ كان دخلها الشهرى ما يساوى ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه، وعليها أن تدفع إيجار الحجرة، وتدفع مصاريف الدراسة وتشترى الكتب، أما عن الطعام والشراب فهو ما يتبقى من هذا الدخل الهزيل. لم يكن فى الحجرة من أثاث سوى سرير متواضع ومقعد متهالك ومنضدة أكل عليها الزمن وترب، ومصباح صغير يضاء بالزيت وموقد قديم لإعداد الطعام. حجرة متواضعة جدا، ومع ذلك كانت مارى سعيدة بحياتها الجديدة، على الرغم من الفقر والبرد والصقيع، وحتى تحمى نفسها من برد باريس ليلا كانت ترتدى كل ملابسها ثم تضع المقعد فوقها أثناء النوم، فلم تكن تملك أغطية تكفى للتدفئة، أما طعامها فكان الخبز الأسود وعروق الفجل وأكواب الشاى، وإذا أرادت أن تسعد نفسها وتسرف فى الطعام تشترى بيضة أو اثنتين، المهم عندها هو الدراسة والعلم، انكبت عليهما ليل نهار تكاد أن تأكل الكتب وتفهمها وتحفظها عن ظهر قلب، نسيت نفسها تماما حتى اجتمع الجوع والبرد والضعف عليها فانهارت تماما، فأسرع زوج أختها الطبيب بالإشراف على علاجها ونقلها إلى بيته تحت رعاية أختها التى حاولت أن تقدم لها الطعام والدواء المناسب.

وما هى إلا عدة أيام حتى وجدت مارى نفسها أفضل صحيا فعادت إلى حجرتها وهرعت إلى الجامعة لاستكمال دراستها، وفعلا كانت النتيجة هى النجاح فى امتحان السوربون، وكان ترتيبها الأول على جميع الدارسين.

طلبت إحدى الجمعيات العلمية البولندية من مارى البحث عن مغناطيسية المعادن الصلبة، وتوسط البعض لدى العالم الفرنسى «بيير كورى Pierre Curie» لمساعدتها، ووافق الرجل وفتح معامل الجامعة لها لإجراء تجاربها.. الطريف أن هذا العالم كان ينظر إلى المرأة نظرة مستهترة، فهى فى رأيه مجرد لعبة يجب على الرجال الاستغناء عنها!!.

بعد أن وافق دكتور كورى على مساعدة مارى، كان يقابلها مصادفة أثناء إجراء تجاربها، وتحدث معها عن أبحاثها وأمنياتها وعملها، وتعجب الرجل من نشاط وطموح ووطنية مارى، ولم يكن يتوقع أن يجد فتاة بهذا القدر من الثقافة والمعرفة، واستطاعت مارى أن تغير نظرته السيئة للمرأة، بل دفعته – دون أن تقصد – إلى أن يقع فى حبها، واستطاع هو أيضا بعلمه وطموحه أن ينسيها تجربتها العاطفية السابقة، ولعب كيوبيد بقلبها فخفق لحب أستاذها.. واعترف المحبان لبعضهما، بعد أن وجدا انسجاما وتآلفا بين عقليهما وعاطفيتهما وقلبيهما، ولم يجد الاثنان بدا من تتويج هذا الحب بالزواج، وبالفعل كانت ١٨٩٥ سنة مهمة فى حياتهما، إذ تم الزواج بينهما، وأصبح اسم

«مارى سكلوديفسكا Maria Sklodivska» الجديد فى فرنسا هو «مارى كورى Maria Curie» وهو الاسم لعلمى المعروفة به، وحدث فى يوم الزواج أن ذهبت مارى إلى المعمل لتنجز بعض الأشياء، فنسيت نفسها مع حبها للعمل، ونسيت ساعة الزواج نفسها! وعندما ذكرها أحد المقربين إليها بساعة الزفاف قالت:

«أوه.. أنا واثقة أن بيير سوف يغفرلى عندما يعلم أننى قد وضعت يدى على أول الخيط..».

قضى العروسان شهر العسل فى الريف الهادئ الحميل خارج باريس، وكان حديثهما الدائم عن طموحاتهما العلمية وضرورة تشييد معمل خاص بهما، وبعد انتهاء شهر العسل، كانا يقضيان فى معمل الجامعة حوالى ثمانى ساعات يوميا، ثم يعودان إلى بيتهما البسيط ليستكملا دراساتهما وأبحاثهما، فكانا يجلسان أمام المنضدة وبينهما مصباح يقرآن ويتناقشان حتى الساعة الثالثة قرب الفجر دون ملل أو ضجر، بل كل منهما يشجع الآخر على المزيد.

اهتمت مارى كورى بأبحاثها العلمية، ومواصلة دراستها العليا، واختارت بحثا لرسالة الدكتوراة عن «الإشعاع الذاتى لبعض المعادن» وكان هذا الموضوع بالذات قد طرقه من قبل عالم آخر ولم يصل إلى سبب أو تعليل لهذا الإشعاع الصادر من معدن اليورانيوم، أما هى فقد افترضت منذ البداية وجود عنصر جديد هو مصدر الإشعاع، مخالفة بذلك القواعد العلمية المتفق عليها، واقترحت أن يطلق على هذا العنصر

الجديد اسم «راديوم Radium»، وكان عليها أن تعمل وتكافح لتثبت صحة فرضها، وانضم لها زوجها يساعدها فى البحث والتجارب، وحتى يتمكنا من أن يتفرغا لعملهما بحث بيير كورى عن مكان يصلح لإعداده معملا خاصا بهما، واختار مكانا متواضعا قديما قرب الجامعة، وأعده ليكون معملا خاصا بهما، وحقق بذلك جزءا من حلمهما، وعلى الرغم من أن هذا المعمل كان متواضعا للغاية، متهالكا، حارا صيفا باردا شتاء، بل إن الأمطار عندما تتساقط كانت تدخل وتتسرب داخله وتسقط عليهما، على الرغم من كل هذا، كان الزوجان السعيدان يقضيان فيه ساعات طويلة ليلا ونهارا، وظلا هكذا حوالى أربع سنوات، يقلبان أطنانا هائلة من نفايات صخور «البتشيلند» الغنية بأملاح اليورانيوم، ويقومان بإذابة بعض المواد، ثم يجريان الحسابات والمعادلات العديدة.

تجارب كثيرة ومحاولات عديدة، قامت بها مدام كورى بمساعدة زوجها لتثبت صحة فرضها وتعثر على العنصر الجديد مصدر الإشعاع فى معدن اليورانيوم، ولم يهدأ لها بال إلا عندما عثرت عليه وأثبتته فعلا.

ففى مساء أحد أيام سنة ١٩٠٢ طلبت مارى من زوجها الخروج من المنزل للذهاب إلى المعمل، وعلى الرغم من أن الوقت كان التاسعة مساء إلا أن الزوج لم يمانع من الخروج، واتجه الاثنان إلى المعمل، وهناك طلبت مارى عدم إضاءة المصابيح، وعندما فتح الباب، قالت بلهفة بيير انظر ماذا ترى؟

كان هنـاك عنصرا مضيئا يشـع مـن أنابيب الاختبـار، إنه عنصر الراديـوم الـذى كانت تبحث عنه مـن زمن، والذى يصـدر من معدن اليورانيـوم، وهـو خطير فتـاك ولكنه يفيد فى علاج مرض السـرطان الخبيث.

طـيرت وكالات الأنبـاء خـبر الاكتشـاف مع صور مـارى كورى وزوجها، وأصبحا حديث النـاس والإذاعات والصحف، لدرجة أنهما ملا الشـهرة والدعـوات والزيارات انتى تعطلهما عـن مواصلة عملهما وأبحاثهما، وفى الشارع تقدم مرة أحد المارة من مارى وسألها:

ألست أنت مدام كورى؟

أجابت.. لا.. بكل أسف.

كان من الطبيعى أن يفوز الزوجان بجائزة نوبل ١٩٠٣ فى الطبيعة، وقد كانت الجائزة ومكافأتها المالية فرصة لمارى وزوجها للعيش الكريم وتعويض سنوات الفقر والحرمان، ومع ذلك كانت مارى تميل للتقشف وعدم الشـهرة، إنها تعشـق العلـم وتجد فيه كل لذاتها وسـعادتها، وجاءتهما دعـوة لزيارة إنجلـترا لإلقاء بعض المحاضرات ومناقشـة اكتشـافهما، وفعلا قاما بالزيارة، وزارا المعامل والمعاهد العلمية، وفى حفل الاسـتقبال تعجبا «مارى وبيير» من المجتمـع البريطانى الراقى ومدى البذخ الذى يعيش فيـه والمجوهرات الباهظة الثمن التى تتزين بها النساء، وعلق بيير على ذلك قائلا: ماذا لو جمعت هذه المجوهرات وبيعت وصرف ثمنها على البحث العلمى وتشييد المعامل؟!

ألم يكن ذلك أفضل للعالم ومستقبل الإنسانية!!.

بعد عودتهما إلى باريس جاءتهما دعوة أخرى لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية ومناقشة إنتاج مادة الراديوم بكميات كبيرة، ووجد بيير الفرصة للكسب المادى، وصارح زوجته بأنها الفرصة للتخلص من الفقر والتقشف، وبناء معمل علمى يليق بهما، والاهتمام بطفلتيهما، ولكن مارى كان لها رأى آخر أفحمت به زوجها بيير إذ قالت له:

«إن واجب العلماء أن يعطوا اكتشافاتهم للعالم. حتى لو كانت أسرار هذه الاكتشافات تساوى الملايين. إن التجارة بالاكتشاف ضد الروح العلمية».

تعجب بيير من كلام زوجته، لكنه اقتنع برأيها فى النهاية فى تقديم العلم لكل الناس مجانا، وهكذا كانت مارى كورى بسيطة متقشفة محبة للإنسانية، متواضعة على الرغم من مكانتها العلمية وحصولها على جائزة نوبل، ففى إحدى الحفلات الكبرى التى جمعت الملوك والرؤساء والأمراء والعلماء تقدم أحد الحاضرين فى الحفل وسألها: هل تودين مقابلة ملك اليونان الذى يشرف الحفل وتصافحينه؟

وكانت إجابتها.. أعتقد أنه لايوجد سبب يدعونى لمقابلة الملك..!.

عاش الزوجان حياة هادئة سعيدة فى بيتهما وعملهما، وبين طفلتيهما، إيرين وإيف، إلا أن القدر لم يمهلهما كثيرا، فقد حدث أن انزلق بيير كورى على الأرض من شدة المطر والزحام وداسته عجلات إحدى عربات الخيل الثقيلة المسرعة فمات فى الحال، بعد أن انتهى من إلقاء محاضراته فى الجامعة يوم الخميس ١٩ أبريل ١٩٠٦، وكانت

صدمة حزينة لمارى زوجته، ولكنها كالعادة قوية متماسكة تعودت على قسوة الحياة منذ نعومة أظفرها، فاهتمت ببناتها وأسرتها وأبحاثها ودراساتها، وأصدرت الجامعة الفرنسية قرارا بتعيينها فى نفس الوظيفة التى كان يشغلها زوجها. أستاذ فى كلية العلوم. واستطاعت أن تثبت جدارتها وتكمل المشوار.

فى سنة ١٩١١ فازت مارى كورى بجائزة نوبل للمرة الثانية، وهو تكريم لم تحصل عليه سيدة أخرى فى العالم، وفى سنة ١٩١٤ تم إنشاء المعهد العلمى الفرنسى الذى ساعدها كثيرا فى أبحاثها، وفى السنة نفسها اشتعلت الحرب العالمية الأولى، وعندما اقترب خطرها إلى مشارف باريس، قامت الدكتورة مارى كورى بنقل كمية الراديوم التى تمتلكها فى معملها إلى مكان آمن خارج العاصمة، وعادت بعد ذلك لتؤدى دورها فى الحرب وتعالج مئات الجرحى والمصابين، وكانت تقود سيارة الإسعاف بنفسها، فهى مع الإنسانية ومن أجل الإنسان، فى الحرب والسلام.

ظلت مارى كورى تعمل وتؤدى واجبها فى البيت والجامعة، وتقوم برحلات خارج فرنسا من أجل العلم، وكانت صحتها تتدهور وتضعف مع الأيام، ولم يستطع العلماء اكتشاف مرضها حتى رحلت عن عالمنا فى اليوم الرابع من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ عن عمر يناهز ٦٧ سنة. وبعد رحليها اكتشف العلماء سبب مرضها، وهو تعرضها الدائم للنشاط الإشعاعى الذى كان يصدر عن مادة الراديوم التى عاشت طوال حياتها

تبحث عنها، كان الإشعاع يدمر خلايا جسمها حتى ماتت، وبعد موتها بسنة فازت ابنتها إيرين بجائزة نوبل سنة ١٩٣٥ فى العلوم أيضا، وبعد موتها بواحد وستين سنة، أى فى شهر أبريل سنة ١٩٩٥ احتفلت باريس بنقل رفاتها مع زوجها بيير كورى إلى مقابر العظماء بمبنى البانتيون فى قلب باريس، بقرار من الرئيس الأسبق لفرنسا «ميتران» شخصيا، وأصبحت الدكتورة مارى كورى العالمة، البولندية الأصل، مكتشفة مادة الراديوم، أول امرأة تكرم وتدفن مع عظماء فرنسا، جان جاك روسو، فولتير، فكتور هوجو.. وغيرهم.

□□□